بَيْضَةُ الفِيلِ

د. زكي نجيب محمود

قال الشيخ: الفيلة تلد ولا تبيض والمشكلة المراد حلها هي هذه: لو كانت الفيلة تبيض، فماذا تكون لون بيضتها ؟، في الجواب عن هذا السؤال اختلف العلماء، يقول عمارة بن الحارث بن عمارة تكون بيضاء، واستدل على صحة قوله بدليل من القياس ودليل من اللغة ؛ أما دليل القياس فهو أن كافة مخلوقات الله التي تبيض بيضها أبيض، وليس في طبيعة الفيل ما يدل على أنه لو باض أخذت بيضته لوناً آخر غير البياض ؛ فاذا اختلف الفيل عن غيره من الحيوان فذلك في حجمه وقوته ونابه، وهذه كلها صفات لا تستلزم في البيضة لوناً غير البياض، فقد يكون الحيوان صغيراً كالذبابة أو كبيراً كالنعامة، قوياً كالعقاب أو ضعيفا كالحمامة، بناب التمساح أو بغيره كالدجاجة، والبيضة هي هي في لونها بيضاء لا تتغير؛ ومما يزيد هذه الحجة وزنا ورجحانا هو أن الخلائق تجري على اطراد وتشابه، فالكواكب متشابهة والبحار متشابهة والحيوان متشابه والطير متشابه ؛ فإذا قيل مثلاً أن حيواناً جديداً سيولد بعد ألف عام، جاز لنا أن نحكم في ترجيح يقرب من اليقين بأنه سيكون ذا أذنين وأنف واحد وعينين ؛ وعلى هذا القياس نفسه نحكم بالبياض على بيضة الفيل.

وأما دليل اللغة فإن البيضة مشتقة من البياض، إذن فالبياض أصل والبيضة فرع منه، ولا يعقل أن يتفرع عن البياض حمرة أو زرقة لأن الفرع شبيه دائماً بأصله، ولذلك قيل: "هذا الشبل من ذاك الأسد".

ثم استطرد عمارة فتسائل عن حجم بيضة الفيل، وأجاب بأنها تكون قدر بيضة النعامة عشرين مرة، لا لأن الفيل يكبر النعامة حجما بهذا القدر كله، بل لأنه في قوته يوازي عشرين نعامة، والأساس في حجم البيضة هو قوة الحيوان البائض لا حجمه فتصغر بيضة الحيوان أو تكبر بقدر ما هو قوي أو ضعيف لا بمقدار ما هو صغير أو كبير، على خلاف الرأي الشائع بين الناس، وقد أيد عمارة قوله هذا بأمثلة ساقها تدل على أن الحيوان ربما كان كبيراً وباض بيضاً صغيراً، أو كان صغيراً وباض بيضاً كبيراً.

ثم تسائل عمارة أيضاً: هل كانت طبيعة الفيل لتتغير لو باض، فيكون ذا جناحين ليتخذ طبيعة الطير؟ وأجاب بأنه ليس في نواميس الكون ما يستلزم هذا الانقلاب في طبيعته، فالسمك يخرج من البيض وليس له أجنحة، بل له زعانف تساعده على السباحة ولا تساعده على الطيران ؛ وبيض الفراش وبيض الذباب وما إلى ذلك يخرج منه الدود ولا يخرج منه ذوات الجناح . إذن فقد يخرج من بيضة الفيل فيل ذو أربع قوائم وليس له جناح .

وأخيراً تسائل عمارة: ما حكم الشرع في بيضة الفيل؟ أيحل أكلها للمسلمين أم يحرم عليهم؟ وهنا كذلك أجاب بدقته المعهودة أن بيضة الفيل حلال أكلها بشرط، وحرام بشرط ؛ فهي حلال إذا كانت لا تكسب الإنسان الآكل صفة الافتراس، وهي حرام إذا خيف أن تكسبه هذه الصفة. وإنما يكون الآكل بمنجىً من عدوى الافتراس لو كان الفيل البائض هو الجيل العاشر من سلسلة أجيال استأنسها الإنسان.

بمثل هذا الدقة العقلية والبراعة الذهنية أثار عمارة بن الحارث هذه المسائل عن بيضة الفيل وأجاب عنها، ولا عجب فهو الفقيه العالم الذي سارت بفتاواه الركبان فيما تعذر حله على غيره من العلماء.

وتصدى مَعْسَرَةُ بن المنذر لتفنيد ما قاله عمارة بن الحارث في بيضة الفيل من حيث لونها، فقال عن دليل القياس الذي ساقه عمارة بأن كافة الحيوان الذي يبيض بيضه أبيض، فبيضة الفيل لا بد أن تكون بيضاء اطراداً مع القاعدة، إنه دليل لا يقوم على سند من الواقع، فليس صحيحا أن كافة الحيوان الذي يبيض بيضه أبيض، فبيض البط فيه خضرة خفيفة، وبيض الدجاج في بعضه حمرة خفيفة، ومن الطير ما بيضه أقرط، ومنه ما بيضه أزرق.

وأما دليل اللغة الذي ينبنى على أن البيضة مشتقة من البياض ولذلك وجب أن تكون بيضاء، فهو استنتاج معكوس ومغلوط في آن واحد، معكوس لأننا حتى لو افترضنا أن البيضة مشتقة من البياض، فليس هذا دليلاً أن البيضة بيضاء لأنها بيضة، بل هو دليل أنها بيضة لأنها بيضاء .

ولتوضيح المعنى المراد ضرب معسرة مثال الدقيق والخبز، فالدقيق أصل و الخبز فرع فإن جاز لنا أن نقول أنه خبز لأنه من دقيق، فلا يجوز أنه من دقيق لأنه خبز، والدليل مغلوط، لأننا حتى إن رتبنا مراحل الاستنتاج ترتيباً صحيحاً، وقلنا أن البيضة بيضة لأنها بيضاء كانت النتيجة خطأ، لأنه لا يكفى أن يكون الشيء أبيض لكي نحكم عليه أنه بيضة، وإلا لجاز لنا أن نقول أن هذا الجدار بيضة لأنه أبيض، وهذا الدقيق بيضة لأنه أبيض، وهلم جراً .

وبعد أن فند معسرة أقوال عمارة، بسط رأيه في لون بيضة الفيل، فقال: إن الفيل حيوان فيه شذوذ عن مستوى الحيوان، والشذوذ لابد أن ينتج شذوذاً، وإلا لما تكافأت المقدمات والنتائج، والشذوذ في البيض أن يكون أسود، ولذلك فإن كان

الفيل ليبيض وجب أن تكون بيضته سوداء، إذ لو باض بيضة بيضاء، كنا بمثابة من يقول: إن الحيوان الشاذ تتفرع عنه نتيجة لا شذوذ فيها، وهو قول فيه تناقض بين الصدر والعجز.

وكان بين تلاميذ ابن الحارث تلميذ نجيب، فتصدى للرد على نقد معسرة، فقال: إن معسرة وهو شيخ المناطقة في زمانه، قد زل زلة ما كان ينبغي أن يقع في مثلها رجل مثله، فبينما هو ينكر أن يكون للبيض لون خاص، ويزعم بأن من البيض ما هو أزرق أو أرقط، تراه في الوقت نفسه يقول إنه ما دام الفيل حيواناً شاذاً وجب أن يكون بيضه شاذاً في لونه كذلك، والشذوذ في البيض يكون أسود فكيف يمكن أن يكون الشذوذ سواداً إن لم تكن القاعدة بياضاً؟.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى نحن نسائل هذا العالم المنطقي: أصحيحٌ أن الشاذ لا ينتج إلا شاذاً ؟، أيظن معسرة أنه ما دامت الحية لا تنتج إلا حية، فالأعرج لا يلد إلا الأعرج، والأعمى لا يلد إلا الأعمى؟ فإن كان الأعرج ينسل من يمشي على قدميه، كما ينسل الأعمى من يبصر بعينيه، فلماذا لا يبيض الحيوان الشاذ بيضة تجرى مع الألفة والعادة؟

قال الشيخ: هكذا جرى النقاش بين العلماء .....

وزلزلت الأرض زلزالها، وقال الشيخ: مالها ؟ فقيل: يا مولانا قنبلة ذَرِّيَّة، في لمحةٍ تقضي على الأصل والذُّرية.

قيل: فَعَجِبَ الشَّيْخُ أَنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا عِلْمٌ غَيْرُ عِلْمِهِ !!!